**كلمة عامة عن الجهاد ومشروعيته**

**هذا، وما دام البحث سيسوقنا منذ الآن، الى الحديث عن الجهاد والقتال، فمن الجدير أن نقف هنا قليلا، لنتبين كفرة صحيحة عن الجهاد ومشروعيته ومراحله.**

**فقد كان الحديث ولا يزال أهم تكأة يعتمد عليها محترفوا الغزو الفكرى فى خلط حق بباطل وفى محاولة لفتح الثغرات فى جوانب صرح هذا الدين الحنيف بغية التشكيك فيه والنيل منه.**

**ولن تعجب من الدوافع الى حصر كل همّهم فى مشروعية الجهاد بخصوصه، إذا علمت بأن أخطر ركن من أركان الإسلام فى نظر أعدائه يخيفهم ويرعبهم، إنما هو الجهاد...! فهم يدركون أن هذا الركن إذا إستيقظ فى نفوسهم وأصبح ذا أثر فى حياة المسلمين فى أى عصر من الزمن فلن تقف أى قوة بالغة ما بلغت من الأهمية فى وجه الدفع الإسلامى، ولذا ينبغى أن يكون البدء فى القيام بأى عمل بغية إيقاف المدّ الإسلامى من هذه النقطة ذاتها.....**

**وسنوضح فى هذه الكلمة ا,لا : معنى الجهاد وغايته فى الإسلام، والمراحل التى تدرج فيه، ثم المرحلة التى إستقر عندها، ثم نبين المغالطات التى دخلت مفهومه، والتقسيمات المتكلفة التى حملت عليه مما لا وجه له.**

**أما معنى الجهاد : فهو بذل الجهد فى سبيل إعلاء كلمة الله وإقامة المجتمع الإسلامى، وبذل الجهد بالقتال نوع من أنواعه.**

**وأما غايته : فهو إقامة المجتمع الإسلامى وتكوين الدولة الإسلامية الصحيحة.**

**وأما المراحل التى مر بها : فقد كان الجهاد فى صدر الإسلام، كما علمنا مقتصراً على الدعوة السلمية مع الصمود فى سبيلها للمحن والشدائد، ثم شرع الى جانبها - مع بدء الهجرة- القتال الدفاعى، أى رد كل قوة بمثلها، ثم شرع بعد ذلك قتال كل من وقف عقبة فى طريق إقامة المجتمع الإسلامى، على أن لا يقبل من الملاحدة والثنيين والمشركين إلا الإسلام وذلك لعدم إمكان الإنسجام بين المجتمع الإسلامى الصحيح وما هم عليه من الإلحاد والوثنية، أما أهل الكتاب فيكفى خضوعهم للمجتمع الإسلامى وانضوائهم فى دولته على أن يدفعوا للدولة ما يسمى ( الجزية ) مكان ما يدفعه المسلمون من الزكاة.**

**وعند هذه المرحلة الأخيرة إستقر حكم الجهاد فى االإسلام، وهذا هو واجب المسلمين فى كل عصر إذا توافرت لديهم القوة والعدةاللازمة. وعن هذه المرحلة يقول الله تعالى :( قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ) وعنها أيضاً يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :( أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله ).**

**ومن هنا تعلم أنه لا معنى لتقسيم الجهاد فى سبيل الله الى حرب دفاعية وأخرى هجومية، إذ مناط شرعة الجهاد ليس هو الدفاع لذاته ولا الهجوم لذاته، إنما مناطه حاجة إقامة المجتمع الإسلامى بكل ما يتطلبه من النظم والمبادىء الإسلامية، ولا عبرة بعد ذلك بكونه جاء هجوماً أو دفاعاً.**

**أما القتال الدفاعى المشروع، كدفاع المسلم عن ماله وعرضه أو أرضه أو حياته، فذلك نوع آخر من القتال لا علاقة له بالجهاد المصطلح عليه فى الفقه الإسلامى، وهو ما يسمى بقتال الصائل، وقد أفرد له الفقهاء باباً مستقلاً فى كتب الفقه، وما أكثر ما يخلط الباحثون اليوم بينه وبين الجهاد الذى نتحدث عنه...!**

**هذه خلاصة معنى الجهاد وغايته فى الشريعة الإسلامية، أما المغالطات والتشويهات التى دست عليه فتتمثل فى نظريتين متناقضتين فى الظاهر ولكنهما منسجمتان فى باطن الأمر وحقيقته، إذ يتكون من كليهما وسيلة واحدة متسعة تستهدف إلغاء مشروعية الجهاد من أساسه.**

**أما النظرية الأولى: فهى تلك التى تنادى بأن الإسلام لم ينتشر إلا بحد السيف وأن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه سلكوا مسلك الإكراه، فكان الفتح الإسلامى على أيديهم فتح قهر وبطش لا فتح قناعة وفكر.**

**وأما النظرية الثانية : فهى تلك التى تهتف بعكس ذلك تماماً، أى أن الدين الإسلامى دين محبة وسلام، لا يشرع فيه الجهاد إلا لرد العدوان المداهم، ولا يجاب أهله إلا إذا أرغموا على ذلك وبودئوا به.**

**ورغم أن هاتين النظريتين متناقضتان كما ذكرنا، فإن أرباب الغزو الفكرى أرادوا أن يستولدوا منهما غاية معينة، هى وحدها المقصودة من كلا هاتين النظريتين،وإليك إيضاح ذلك :**

**لقد أشاعوا وروجو أولاً أن الإسلام دين بطش وقهر وحقد على الآخرين، ثم إنتظروا حتى آتت هذه الشائعة ثمارها من ردود الفعل لدى المسلمين وإنكار هذا الظلم فى حق الإسلام........ وبينما المسلمون يتلمسون الرد على هذا الباطل، قام من أولئك المشككين أنفسهم من إصطنع الدفاع عن الإسلام بعد طول علم وبحث متجردين، وراح يرد هذه التهمة قائلا : إن الإسلام ليس كما قالوا دين سيف ورمح وبطش، بل هو على العكس من ذلك : دين محبة وسلام لا يشرع فيه الجهاد إلا لضرورة رد العدوان المداهم، ولا يرغب أهله فى الحرب ما وجدوا إلى الإسلام سبيل.**

**فصفق البسطاء من المسلمين طويلاً لهذا الدفاع ( المجيد ) فى غمرة تأثرهم من الظلم الشنيع الأول، وصادف ذلك فى نفوسهم التحفزة للرد عليه قبولا ً واستحساناً، فأخذوا يؤيدون ويؤكدون، ويستخرجون البراهان تلو البرهان على أن الإسلام فعلاً كما قالوا...... دين مسالمة وموادعة لا شأن له بالآخرين إلا إذا داهموه فى عقر داره،وأيقظوه من هدأته وسباته وفات أولئك البسطاء أن هذه النتيجة المطلوبة، وهذا بعينه هو الغرض الذى التقى عليه فى السر كل من روّج الشائعة الأولى ثم أشاع الباطل الثانى. فالمقصود هو السلوك بمقدمات ووسائل مدروسة مختلفة، تنتهى الى نسخ فكرة الجهاد من أذهان المسلمين، وإماتة روح الطموح فى نفوسهم.**

**ونحن نسوق لك شاهداً على ذلك، ما ذكره زميلنا الأستاذ الدكتور / وهبة الزحيلى فى كتابه ( آثار الحرب فى الفقه الإسلامى ) على لسان المستشرق الإنكليزى المعروف ( أندرسن )، ولننقل لك عبارته من أولها ( يخاف الغربيون لا سيما الإنكليز من ظهور فكرة الجهاد فى أوساط المسلمين حتى لا تتوحد كلمتهم فيقفوا أمام أعدائهم، ولذلك يحاولون الترويج لفكرة نسخ الجهاد، وصدق الله العظيم إذ يقول فيمن لاإيمان لهم :( فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ) ولقد قابلت المستشرق الإنكليزى أندرسن فى مساء الجمعة 3 حزيران 1960، فسألته عن رأيه فى هذا الموضوع فكان من نصيحته لى أن أقول : إن الجهاد اليوم ليس بفرض بناء على مثل قاعدة ( تتغير الأحكام بتغير الأزمان )، إذ أن الجهاد فى رأيه لا يتفق مع الأوضاع الدولية الحديثة لإرتباط المسلمين بالمنظمات العالمية والمعاهدات الدولية . ولأن الجهاد هو الوسيلة لحمل الناس على الإسلام، وأوضاع الحرية ورقى العقول لا تقبل فكرة تفرض بالقوة ).**

**ونعود إلى ما كنا عليه من حديث بيعة العقبة الثانية :**

**لأمر ما أراد الله عز وجل، إنتهى الى سمع المشركين من اهل مكة خبر هذه البيعة، وما تم فيها بين النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين من أهل المدينة، ولعل من خكمة ذلك تهيىء أسباب هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة، فسنجد أن لهذا الخبر الذى إنتهى الى مسامع قريش أثراً كبيراً فى تضييقهم الأمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماعهم الرأى على قتله والتخلص منه.**

**ومهما يكن فإن بيعة العقبة الثانية كانت المقدمة الأولى لهجرته عليه الصلاة والسلام الى المدينة المنورة.**

**إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة الى المدينة**

**قال ابن سعد فى طبقاته يروى عن عائشة رضى الله عنها : لما صدر السبعون من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم طابت نفسه، فقد جعل الله له منعة وقوماً وأهل حرب وعدة ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج ، فضيقوا على أصحابه وتعبثوا بهم، ونالوا ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكا ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستأذنوه فى الهجرة، فقال : ( قد أخبرت بدار هجرتكم وهى يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها ) فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك، فكان أول من قدم المدينة من أصحابه صلى الله عليه وسلم أبو سلمة بن عبد الأسد ثم قدم بعده عامر ابن ربيعة ومعه إمرأته بنت أبى حشمة، فهى أول ظعينة قدمت المدينة ثم قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالاً فنزلوا على الأنصار فى دورهم، فآووهم ونصروهم وآسوهم.**

**ولم يهاجر أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا متخفياً غير عمر ابن الخطاب رضى الله عنه، فقد روى علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه أنه لمّا همّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه، وانتضى فى يده أسهماً، واختصر عنزته ( عصاه ) ومضى قبل الكعبة، والملأ من قر يش بفنائها فطاف فى البيت سبعاً متمكناً مطمئناً، ثم أتى المقام فصلى، ثم وقف فقال :( شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن يثكل أمه، أو ييتم ولده، أو ترمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى)**

**قال علىّ فما إتبعه إلا قوم مستضعفون علّمهم ما أرشدهم ثم مضى لوجهه.**

**وهكذا تتابع المسلمون فى الهجرة الى المدينة حتى لم يبق بمكة منهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعلىّ، أو معذب محبوس، أو مريض، أو ضعيف عن الخروج.**

**العبر والعظات :**

**كانت قتنة المسلمين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة، فتنة الإيذاء والتعذيب وما يرونه من المشركين من ألوان الهزء والسخرية، فلما أذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة، أصبحت فتنتهم فى ترك وطنهم وأموالهم ودورهم وأمتعتهم، ولقد كانوا أوفياء لدينهم مخلصين لربهم، أمام الفتنة الأولى والثانية، قابلوا المحن والشدائد بصبر ثابت وعزم عنيد.**

**حتى إذا أشار عليهم رسول الله بالهجرة الى المدينة، توجهوا إليها وقد تركوا من ورائهم الوطن وما لهم فيه من مال ومتاع ونشب، ذلك أنهم خرجوا مستخفين متسللين، ولا يتم ذلك إلا إذا تخلصوا من الأمتعة والأثقال، فتركوا كل ذلك فى مكة ليسلم لهم الدين، واستعاضوا عنها بالأخوة الذين ينتظرونهم فى المدينة ليؤووهم وينصرونهم.**

**وهذا هو المثل الصحيح للمسلم الذى أخلص الدين لله : لا يبالى بالوطن ولا بالمال والنشب فى سبيل أن يسلم له دينه. هذا عن أصحاب رسول الله فى مكة.**

**أما أهل المدينة الذين آووهم فى بيوتهم وواسوهم ونصروهم، فقد قدموا المثل الصادق للأخوة الإسلامية والمحبة فى الله تعالى.**

**وأنت خبير أن الله عز وجل قد جعل أخوة الدين أقوى من أخوة النسب وحدها، ولذلك كان الميراث فى صدر الإسلام على أساس وشيجة الدين، وأخوته والهجرة فى سبيله، ولم يستقر حكم الميراث على أساس علاقة القرابة إلا بعد تكامل أفسلام فى المدينة وصارت للمسلمين دار إسلام قوية منيعة.**

**يقول الله عز وجل : ( إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أو لياء بعض، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ).**

**ثم إنه يستنبط من مشروعية هذه الهجرة حكمان شرعيان :**

**1- وجوب الهجرة من دار الحرب الى دار الإسلام، وروى الطبرى عن ابن العربى ( أن هذه الهجرة كانت فرضاً فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم، وهى باقية مفروضة الى يوم القيامة. والتى إنقطعت بالفتح، إنما هى القصد الى النبى صلى الله عليه وسلم، فإن بقى فى دار الحرب عصى ) ومثل دار الحرب فى ذلك كل مكان لا يتسنى للمسلم فيه إقامة الشعائر الإسلامية من صلاة وصيام وجماعة وأذان، وغير ذلك من أحكامه الظاهرة.**

**وما يستدل على ذلك قوله تعالى :(إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا ؟ فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض، قالوا الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ).  
2- وجوب نصرة المسلمين لبعضهم مهما إختلفت ديارهم وبلادهم ما دام ذلك ممكناً، فقد اتفق العلماء والأئمة على أن المسلمين إذا قدروا على إستنقاذ المستضعفين أو المأسورين أو المظلومين من إخوانهم المسلمين، فى أى جهة من جهات الأرض، ثم لم يفعلوا ذلك فقد باؤا بإثم كبير.**

**يقول أبو بكر العربى : إذا كان فى المسلمين أسراء أو مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة والنصرة لهم واجبة بالبدن، بأن لا تبقى منا عين تطرف، حتى نخرج الى إستنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك، أو نبذل جميع أموالنا فى إستخراجهم، حتى لا يبقى لأحد درهم من ذلك.**

**وكما تجب موالاة المسلمين ونصرتهم لبعضهم، فإنه يجب أن تكون هذه الموالاة فيما بينهم، ولا يجوز أن يشيع شىء من الولاية والتناصر أو التآخى بين المسلمين وغيرهم، وهذا ما يصرح به كلام الله عز وجل، إذ يقول :( والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير).**

**يقول ابن العربى قطع الله الولاية بين الكفار والمؤمنين، فجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض، يتناصرون بدينهم ويتعاملون بإعتقادهم.**

**ولا ريب أن تطبيق مثل هذه التعاليم الإلهية، هى أساس نصرة المسلمين فى كل عصر وزمن، كما أن إهمالهم لها وانصرافهم الى ما يخالفها هو أساس ما نراه اليوم من ضعفهم وتفككهم وتألب أعدائهم عليهم من وكل جهة وصوب.**

**هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم**

**جاء فى صحاح السنة وما رواه علماء السيرة أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه لما وجد المسلمين قد تتابعوا مهاجرين الى المدينة، جاء يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الآخر فى الهجرة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :( على رسلك، فإنى أرجو أن يؤذن لى ) فقال أبو بكر :( وهل ترجو ذلك بأبى أنت وأمى ؟ ) قال :(نعم ) فحبس ابو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده، وأخذ يتعهدهما بالرعاية أربعة أشهر.**

**وفى هذه الأثناء رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صارت له شيعة وأصحاب غيرهم بغير بلدهم، فحذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وخافوا أن يكون قد أجمع لحربهم.**

**فاجتمعوا له فى دار الندوة ( وهى دار قصى ابن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها ) يتشاورون فيما يصنعون بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجتمع رأيهم أخيراً على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً، ثم يعطى كل منهم سيفاً صارما، ثم يعمدوا اليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه، كى لا تقدر بنو عبد مناف على حربهم جميعاً، وضربوا لذلك ميعاد يوم معلوم فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره بالهجرة، وينهاه أن ينام فى مضجعه تلك الليلة.**

**قالت عائشة رضى الله عنها فيما يروى البخارى : فبينما نحن يوماً جلوس فى بيت أبى بكر فى حر الظهيرة، قال قائل لأبى بكر :( هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعاً، فى ساعة لم يكن يأتينا فيها ) فقال أبو بكر :(فداً أبى وأمى، والله ما جاء فى هذه الساعة إلا لأمر ) قالت : فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال البنى صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : ( أخرج من عندك ) فقال أبة بكر :( إنما هم أهلك بأبى أنت يا رسول الله )، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :( فإنى قد أذن لى فى الخروج ) فقال أبو بكر : ( الصحبة يارسول الله )، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :( نعم ) فقال ابو بكر :( فخذ بأبى أنت يا رسول الله إحدى راحلتى )، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( بالثمن ).**

**قالت عائشة : فجهزناهما أحث جهاز، وصنعنا لهما سفرة فى جراب، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق.**

**وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه فأمره أن يتخلف بعده بمكة ريثما يؤدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس، إذ لم يكن أحد من أهل مكة له شىء يخشى عليه إلا إستودعه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يعلمون من صدقه وأمانته. وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمّع لهما ما يقوله الناس عنهما فى بياض النهار، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون معه من أخبار. وأمر عامر ابن فهيرة ( مولاه) أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما إذا أمسى إلى الغار (غار ثور ) ليطعما من ألبانها، وأمر أسماء بنته أن تأتيهما من الطعام بما يصلحهما فى كل مساء.**

**وروى ابن إسحاق والإمام أحمد، كلاهما عن يحى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير، عن أسماء بنت أبى بكر قالت : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج معه أبو بكر، إحتمل أبو بكر ماله كله معه : خمسة آلاف درهم أو ستة ىلاف درهم، قالت وانطلق بها معه، قالت : فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت : قلت :كلا يا ابت، إنه قد ترك لنا خيراً كيثراً، قالت: فأخذت احجاراً فوضعتها فى كوة فى البيت الذى كان أبى يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده، فقلت ياابت ضع يدك على هذا المال، فقالت: فوضع يده عليه، قال : لابأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفى هذا بلاغ لكم. ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكنى أردت أن أسكت الشيخ بذلك.**

**ولما كانت عتمة تلك الليلة التى هاجر فيها النبى صلى الله عليه وسلم إجتمع المشركون على باب رسول اله صلى الله عليه وسلم يتربصون به ليقتلوه، ولكنه عليه الصلاة والسلام خرج من بينهم وقد ألقى الله عليهم سنة من النوم بعد أن ترك عليّاً رضى الله عنه فى مكانه نائماً على فراشه، وطمأنه بأنه لن يصل إليه أى مكروه.**

**وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر الى غار ثور ليقيما فيه، وكان ذلك على الراجح فى اليوم الثانى من ربيع الأول الموافق 20 أيلول سنة ( 622 م ) بعد أم مضى ثلاثة عشر سنة من البعثة، فدخل أبو بكر قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمس الغار، لينظر أفيه سبع أو حيّة، يقى رسول الله صلى اله عليه وسلم بنفسه، فأقاما فيه ثلاثة أيام، وكان يبيت عندهما عبد الله ابن أبى بكر يخبرهما بأخبار مكة، ثم يدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت بها، وكان عامر ابن فهيرة يروح عليهما بقطيعه من الغنم، فإذا خرج من عندهما عبد الله تبع عامر أثره بالغنم كى لا يظهر لقدميه أثر.**

**أما المشركون فقد إنطلقوا - بعد أن علموا بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم - ينتشرون فى طريق المدينة يفتشون عنه فى كل المظان، حتى وصلوا الى غار ثور، وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أقدام المشركين تخفق من حولهم فأخذ الروع أبا بكر وهمس يحدث النبى صلى الله عليه وسلم : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا، فأجابه عليه الصلاة والسلام :( يا أبا بكر ما ظنك بإثنين الله ثالثهما )...**

**فأعمى الله أبصار المشركين حتى لم يحن لأحد منهم إلتفاتة الى ذلك الغار ولم يخطر ببال واحد منهم أن يتساءل عما يكون بداخله.**

**ولما إنقطع الطلب عنهما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر، بعد أن جاءهما عبد الله ابن أرقط وهو من المشركين، كانا قد إستأجراه ليدلهما على الطرق الخفية الى المدينة بعد أن إطمأنا إليه، وواعداه مع الراحلتين عند الغار ) فسارا متبعين طريق الساحل بإرشاد من عبد الله بن أرقط، وكان قد جعل مشركوا مكة لكل من أتى برسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه ديّة كل منهما. وذات يوم، بينما كان جماعة من بنى مدلج فى مجلس لهم، وبينهم سراقة ابن جعشم، إذ اقبل إليهم رجل منهم فقال : إنى قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه، فعرف سراقة أنهم هم، ولكنه أراد أن يثنى عزم غيره عن الطلب، فقال له : إنك قد رأيت فلاناً وفلانا، إنطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم. ثم لبث فى المجلس ساعة، وقام فركب فرسه ثم سار حتى دنا من رسول الله فعثرت به فرسه فخرّ عنها، ثم ركبها ثانية وسار حتى صار يسمع قراْة النبى صلى اله عليه وسلم وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الإلتفات، فساخت قائمتا فرس سراقة فى الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخر عنها ثم زجرها حتى نهضت، فلم تكد تخرج قدميها حتى سطع لأثرهما غبار إرتفع فى السماء مثل الدخان، فعلم سراقة أنه ممنوع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وداخله رعب عظيم، فناداهما بالأمان.فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه حتى وصل إليهم، فاعتذر إليه وساله أن يستغفر له، ثم عرض عليهما الزاد والمتاع، فقالا : لا حاجة لنا، ولكن عمّ عنا الخبر، فقال كفيتم.**

**ثم عاد سراقة أدراجه الى مكة وهو يصرف أنظار الناس عن الرسول ومن معه بما يراه من القول..............**

**وهكذا إنطلق إليهما فى الصباح جاهداً فى قتلهما، وعاد فى المساء يحرسهما ويصرف الناس عنهما**

**قدوم قباء**

**ووصل رسول الله صلى الله عليه وسلم قباء، فاستقبله من فيها بضعة أيام نازلاً على كلثوم بن هدم، حيث أدركه فيها على رضى الله عنه بعد أن أدى عنه الودائع الى أصحابها، وأسس النبى صلى الله عليه وسلم هناك مسجد قباء، وهو المسجد الذى وصفه الله بقوله :( لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق**

**أن تقوم فيه.... ) الآية.**

**ثم واصل سيره الى المدينة فدخلها لآثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول على ما ذكره المسعودى فالتف حوله الأنصار، كل يمسك زمام راحلته يرجوه النزول عنده فكان صلى الله عليه وسلم يقول لهم : دعوها فإنها مأمورة فلم تزل راحلته تسير فى فجاج المدينة وسككها حتى وصلت الى مربد لغلامين يتيمين من بنى النجار أمام دار أبى أيوب الأنصارى، فقال النبى صلى الله عليه وسلم :( ههنا المنزل إن شاء الله ) وجاء أبو أيوب فاحتمل الرحل الى بيته، وخرجت ولائد من بنى النجار - فيما يرويه ابن هشام - فرحات بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجواره لهن، وهنّ ينشدنّ**

**نحن جوار بنى النجار يا حبذا محمد من جار**

**فقال عليه السلام لهنّ : ( أتحببننى ؟ ) فقلن : نعم فقال : الله يعلم أن قلبى يحبكنّ )**

**صورة عن مقام النبى صلى الله عليه وسلم فى دار أبى أيوب**

**روى أبو بكر ابن أبى شيبة وابن إسحاق والإمام أحمد ابن حنبل من طرق متعددة بألفاظ متقاربة أن أبا أيوب رضى الله عنه قال وهو يحدث عن أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنده : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى فى أسفل البيت وأنا وأم أيوب فى العلو، فقلت له : يانبى الله بأبى أنت وأمى إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى، فاظهر أنت فكن فى الأعلى، وننزل نحن نكون فى السفل، فقال : يا أبا أيوب، إنه لأرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى أسفل البيت.**

**قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفله وكنا فوقه فى المسكن، ولقد إنكسرت جرّة لنا فيها ماء يوما، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء، تخوفاً أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شىء فيؤذيه، فنزلت إليه وأنا مشفق، فلم أزل أستعطفه حتى إنتقل الى العلو. قال : وكنا نضع له العشاء، ثم نبعث به إليه، فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغى بذلك البركة، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له بصلاً وثوماً، فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أر ليده فيه أثر، فجئته فزعاً فقلت يا رسول الله بأبى أنت وأمى، رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك، وكنت حينما ترد علينا فضل طعامك أتيمم أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغى بذلك البركة، فقال : إنى وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجى، فأما أنتم فكلوه، قال : فأكلناه، ثم لم نضع فى طعامه شيئاً من الثوم أو البصل بعد.**

**العبر والعظات :**

**تحدثنا فى فصل سابق، عن معنى الهجرة فى الإسلام، عند تعليقنا على هجرة المسلمين الأولى الى الحبشة، وقلنا إذ ذاك ما خلاصته : إن الله عز وجل جعل قداسة الدين والعقيدة فوق كل شىء، فلا قيمة للأرض والوطن والمال والجاه إذا كانت العقيدة وشعائر الدين مهددة بالحرب والزوال، ولذا فرض الله على عباده أن يضحوا بكل ذلك - إذا إقتضى الأمر - فى سبيل العقيدة والإسلام.**

**وقلنا أيضا أن سنة الله تعالى فى الكون إقتضت أن تكون القوى المعنوية التى تتمثل فى العقيدة السليمة والدين الحق هى المحافظة للمكاسب والقوى المادية، فمهما كانت الأمة غنية فى خلقها السليم متمسكة بدينها الصحيح فإن سلطانها المادى المتمثل فى الوطن والمال والعزة يغدو أكثر تماسكاً وأرسخ بقاءاً وأمنع جانباً. ومهما كانت فقيرة فى أخلاقها مضطربة تائهة فى عقيدتها فإن سلطانها المادى المتمثل فيما ذكرناه يغدو أقرب الى الإضمحلال والزوال، وقلنا إن التاريخ أعظم شاهد على ذلك.**

**ولذلك شرع الله عز وجل مبدأ التضحية بالمال والأرض فى سبيل العقيدة والدين عندما يقتضى الأمر، فبذلك يضمن المسلمون لأنفسهم المال والطن والحياة، وإن بدا لأول وهلة أنهم تعروا عن كل ذلك وفقدوه.**

**وحسبنا دليلاً على هذه الحقيقة هجرة رسول اله صلىالله عليه وسلم من مكة الى المدينة، لقد كانت بحسب الظاهر تركاً للوطن وتضييعاً له، ولكنه كان فى واقع الأمر حفاظاً عليه وضمانة له، ورب مظهر من مظاهر الحفاظ على الشىء يبدو فى صورة الترك والإعراض عنه فقد عاد بعد بضع سنين من هجرته هذه - بفضل الدين الذى أقام صرحه ودولته - الى وطنه الذى أخرج منه، عزيز الجانب، منيع القوة، دون أن يستطيع أحد من أولئك الذين تربصوا به ولاحقوه بقصد القتل أن يدنوا إليه بأى سوء...**

**ولنعد الآن الى التأمل فيما سردناه من قصة هجرته صلى الله عليه وسلم لنستنبط منها الدلالات والأحكام الهامة لكل مسلم :**

**1- من أبرز ما يظهر لنا من قصة هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، إستبقاؤه لأبى بكر رضى الله عنه دون غيره من الصحابة كى يكون رفيقه فى هذه الرحلة.**

**وقد إستنبط العلماء من ذلك مدى محبة الرسول صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وأنه أقرب الصحابة إليه وأولاهم بالخلافة من بعده، ولقد عززت هذه الدلالات أموراً كيثرة أخرى مثل إستخلافه له فى الصلاة بالناس عند مرضه وإصراره على أن لا يصلى عنه غيره، ومثل قوله فى الحديث الصحيح :( لو كنت متخذاً خليلاً لإتخذت أبا بكر خليلا ).**

**ولقد كان ابو بكر رضى الله عنه - كما رأينا - على مستوى هذه المزية التى أكرمه اله بها، فقد كان مثال الصاحب الصادق بل والمضحى بروحه وبكل ما يملك من أجل رسول الله صلى الله عليسه وسلم، ولقد رأينا كيف أبى إلا أن يسبق رسول الله فى دخول الغار كى يجعل من نفسه فداءاً له عليه الصلاة والسلام فيما إذا كان فيه سبع أو حية أو أى مكروه ينال الإنسان منه الأذى، ورأينا كيف جند أمواله وأولاده ومولاه وراعى أغنامه فى سبيل خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الرحلة الشاقة الطويلة. ولعمرى إن هذا ما ينبغى أن يكون عليه شأن كل مسلم آمن بالله ورسوله، ولذا يقول رسول الله صلى اله عليه وسلم :( لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين ).**

**2- قد يخطر فى بال المسلم أن يقارن بين هجرة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وهجرة النبى صلى الله عليه وسلم ويتساءل : لماذا هاجر عمر علانية متحدياً المشركين دون أى خوف ووجل، على حين هاجر رسول الله مستخفياً محتاطاً لنفسه؟ أيكون عمر ابن الخطاب أشد جرأة من النبى صلى الله عليه وسلم؟**

**والجواب ان عمر ابن الخطاب أو أى مسلم آخر غير رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتبر تصرفه تصرفاً شخصياً لا حجة تشريعية فيه، فله أن يتخير من الطرق والوسائل والأساليب ما يحلو له وما يتفق مع قوة جرأته وإيمانه بالله تعالى، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مشرّع، أى أن جميع تصرفاته المتعلقة بالدين تعتبر تشريعاً لنا، ولذلك كانت سنته هى المصدر الثانى من مصادر التشريع الإسلامى مجموع أقواله وأفعاله وصفاته وتقريره، فلو أنه فعل كما فعل عمر، لحسب الناس أن هذا هو الواجب !... وأنه لايجوز أخذ الحيطة والحذر،والتخفى عند الخوف، مع أن الله عز وجل أقام شريعته فى هذه الدنيا على مقتضى الأسباب والمسببات،وإن كان الواقع الذى لا شك فيه أن ذلك بتسبيب الله تعالى وإرادته، لأجل ذلك استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم كل الأسباب المادية التى يهتدى إليها العقل البشرى فى مثل هذا العمل، حتى لم يترك وسيلة من هذه الوسائل إلا إعتد بها واستعملها، فترك على ابن أبى طالب ينام فى فراشه ويتغطى ببرده، واستعان بأحد المشركين - بعد أن أمنه- ليدله على الطرق الفرعية التي قد لا تخطر فى بال الأعداء، وأقام فى الغار ثلاثة أيام متخفياً، إلى آخر ما عبأه من الاحتياطات المادية التي قد يفكر بها العقل، ليوضح بذلك أن الإيمان بالله عز وجل لا ينافى إستعمال الأسباب المادية التى أرادت حكمة الله تعالى أن تكون أسباباً.**

**وليس قيامه بذلك بسبب خوف فى نفسه، أو شك فى إمكان وقوعه فى قبضة المشركين قبل وصوله المدينة، والدليل على ذلك أنه عليه الصلاة والسلام بعد أن إستنفد الأسباب المادية كلها، وتحلق المشركون حول الغار الذى يختبىء فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه - بحيث لو نظر احدهم عند قدمه لأبصر الرسول صلى الله عليه وسلم - إستبد الخوف بابى بكر رضى الله عنه على حين كان يطمئنه عليه الصلاة والسلام قائلاً : يا أبا بكر : (ما ظنك بإثنين الله ثالثهما ) ولقد كان من مقتضى إعتماده على كل تلك الإحتياطات أن يشعر بشىء من الخوف والجزع فى تلك الحال.**

**لقد كان كل ما فعله من تلك الإحتياطات إذاً وظيفة تشريعية قام بها، فلما إنتهى من أدائها، عاد قلبه مرتبطاً بالله تعالى معتمداً على حمايته وتوفيقه، ليعلم المسلمون أن الإعتماد فى كل أمر لا ينبغى أن يكون إلا على الله عز وجل، ولكن لا ينافى ذلك إحترام الأسباب التى جعلها الله فى هذا الكون أسباباً. ومن أبرز الأدلة على هذا الذى نقوله أيضاً، حالته صلى الله عليه وسلم عندما لحق به سراقة يريد قتله وأصبح على مقربة منه، لقد كان من مقتضى تلك الإحتياطات الهائلة التى قام بها أن يشعر بشىء من الخوف من هذا الذى يجد فى اللحاق به بل كان مستغرقاً فى قراءته ومناجاته ربه لأنه يعلم أن الله الذى أمره بالهجرة سيمنعه من الناس ويعصمه من شرهم كما بين فى كتابه المبين.**

**3- وفى تخلف علىّ رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أداء الودائع التى كانت عنده الى أصحابها دلالة باهرة على التناقض العجيب الذى كان المشركون واقعين فيه، ففى الوقت الذى كانوا يكذبونه ويرونه ساحراً أو مخادعاً لم يكونوا يجدون من حولهم من هو خير منه أمانة وصدقاً، فكانوا لا يضعون حوائجهم وأموالهم التى يخافون عليها إلا عنده...! وهذا يدل على أن كفرانهم لم يكن بسبب الشك لديهم فى صدقه، وإنما هو بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق الذى جاء به وخوفاً على زعامتهم وطغيانهم.**

**4- ثم إننا نلمح فى النشاط الذى كان يبذله عبد الله ابن أبى بكر رضى الله عنه، ذاهباً آيباً بين الغار ومكة، يتحسس الأخبار وينقلها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبيه، وفيما عمدت إليه أخته أسماء رضى الله عنها من الجد فى تهيىء الزاد والراحلة واشتراكها فى إعداد العدة لتلك الرحلة - نلمح فى ذلك صورة مما يجب أن يكون عليه الشباب المسلم ذكوراً وإناثاً فى سبيل الله عز وجل ومن أجل تحقيق مبادىء الإسلام وإقامة المجتمع المسلم، فلا يكفى أن يكون الإنسان منطوياً على نفسه مقتصراً على عباداته، بل عليه ان يستنفد طاقاته وأوجه نشاطه كلها سعياً فى سبيل الإسلام، وتلك هى مزية الشباب فى حياة الإسلام والمسلمين فى كل زمن وعصر.**

**وإذا تأملت فيمن كان حول رسول الله صلى الله عليه وسلم إبان دعوته وجهاده، وجدت أن أغلبيتهم العظمى كانوا شباباً لم يتجاوزوا المرحلة الأولى فى عمر شبابهم، ولم يألوا جهداً فى تجنيد طاقاتهم وقوتهم من أجل نصرة الإسلام وإقامة مجتمعه.**

**5- أمّا ما حدث لسراقة وفرسه وهو يلحق لبرسول الله صلى الله عليه وسلم فينبغى أن لا يفوتنا أنها معجزة خارقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إتفق أئمة الحديث على صحتها ونقلها وفى مقدمتهم البخارى ومسلم، فأضفها الى معجزاته الأخرى التى سبق الحديث عنها فيما مضى.**

**6- ومن أبرز المعجزات الخارقة فى قصة هجرته عليه الصلاة والسلام خروجه صلى الله عليه وسلم من بيئته وقد أحاط به المشركون يتربصون به ليقتلوه، فقد علق النوم بأعينهم جميعاً حتى لم يحس به أحد منهم، وكان من تتمة السخرية بتآمرهم على حياته ما إمتلأت به رؤسهم من التراب الذى ألقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم على رؤوسهم إذ خرج من بينهم وهو يتلو قوله تعالى :( وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ).**

**لقد كانت هذ المعجزة بمثابة اإعلان لهؤلاء المشركين وغيرهم فى كل عصر ووقت، بأن ما قد يلاقيه الرسول وصحبه من ألوان الإضطهاد والعذاب على أيديهم مدة من الزمن فى سبيل دينه، لا يعنى أنه قد تخلى عنهم وأن النصر قد إبتعد عن متناولهم، فلا ينبغى للمشركين وعامة أعداء الدين أن يفرحوا ويستبشروا بذلك، فإن نصر الله قريب وإن وسائل هذا النصر توشك أن تتحقق بين كل لحظة وأخرى.**

**7- وتكشف الصورة التى إستقبلت بها المدينة المنورة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مدى المحبة الشديدة التى كانت تفيض بها أفئدة الأنصار من أهل المدينة رجالاً ونساءاً وأطفالاً، لقد كانوا يخرجون كل يوم الى ظاهر المدينة ينتظرون تحت لفح الشمس وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، حتى إذا هبّ النهار ليدبر، عادوا أدراجهم ليعودوا إلى الإنتظار صباح اليوم التالى، فلما طلع الرسول عليهم جاشت العواطف فى صدورهم وانطلقت ألسنتهم تهتف بالقصائد والأهازيج فرحاً لمرآه عليه الصلاة والسلام ومقدمه عليهم، ولقد بادلهم رسول الله صلى اله عليه وسلم نفس المحبة، حتى إنه جعل ينظر إلى ولائد بنى النجار من حوله، وهنّ ينشدنّ ويتغنين بمقدمه، قائلاً : أتحببننى ؟ والله إن قلبى ليحبكنّ.**

**يدلنا كل ذلك أن محبة رسول اله صلى الله عليه وسلم ليست فى مجرد الإتباع له، بل المحبة له هى أساس الإتباع وباعثه، فلولا المحبة العاطفية فى القلب لما وجد وازع يحمل على الإتباع فى العمل.**

**ولقد ضل قوم حسبوا أن محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لها معنى إلا الإتباع والإقتداء وفاتهم أن الإقتداء لا يأتى إلا بوازع ودافع، ولن تجد من وازع يحمل على الإتباع إلا المحبة القلبية التى تهز المشاعر وتستبد بالعواطف، ولذلك جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مقياس الإيمان بالله إمتلاء القلب بمحبته صلى الله عليه وسلم، بحيث تغدو متغلبة على محبة الولد والوالد والناس أجمعين، وهذا يدل على أن محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم من جنس محبة الولد والوالد أى مصدر كل منهما العاطفة والقلب وإلا لم تصح المقارنة والتفضيل بينهما.**

**8- أما الصورة التى رأيناها فى مقامه صلى الله عليه وسلم عند أبى أيوب الأنصارى فى منزله، فتكشف لنا مظهر آخر من مظاهر محبة أصحاب رسول الله صلى الله عليه والسلام له.**

**والذى يهمنا من ذلك هنا، هو التأمل فى تبرك أبو أيوب وأم أيوب، بآثار أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قطعة الطعام، حينما كان يرد عليهما فضل طعامه، إذاً فالتبرك بآثار النبى صلى الله عليه وسلم مشروع قد أقره صلى الله عليه وسلم.**

**وقد روى البخارى ومسلم صوراً كثيرة من تبرك الصحابة بآثار النبى صلى الله عليه وسلم والتوسل بها للإستشفاء أو العناية والتوفيق وما شابه ذلك.**

**من ذلك ما رواه البخارى فى كتاب اللباس، فى باب ما يذكر فى الشيب، من أن أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم كانت تحتفظ بشعرات من شعر النبى صلى الله عليه وسلم فى جلجل لها ( ما يشبه القارورة يحفظ فيه ما يراد صيانته ) فكان إذا أصاب أحد من الصحابة عين أو أذى أرسل إليها إناء فيه ماء، فجعلت الشعرات فى الماء، ثم أخذوا الماء يشربونه توسلا للإستشفاء والتبرك به.**

**ومن ذلك ما رواه مسلم فى كتاب الفضائل باب ( طيب عرقه صلى الله عليه وسلم ) أنه عليه الصلاة والسلام كان يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها وليست هى فى البيت، فجاء ذات يوم فنام على فراشها، فجاءت أم سليم وقد عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش ففتحت عتيدها فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره فى قواريرها، فأفاق النبى صلى الله عليه وسلم فقال: ما تصنعين يا أم سليم ؟ فقالت يارسول الله : نرجو بركته لصبياننا، قال : أصبت )**

**ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين من إستباق الصحابة إلى فضل وضوئه صلى الله عليه وسلم والتبرك بالكثير من آثاره كألبسته والقدح الذى كان يشرب به.**

**فإذا كان هذا شأن التوسل بآثاره المادية فكيف بالتوسل بمنزلته عند الله عز وجل وكيف بالتوسل بكونه رحمة للعالمين ؟**

**ولا يذهبن بك الوهم إلى أننا نقيس التوسل على التبرك،وأن المسألة لا تعدو أن تكون إستدلالا بالقياس، فإن التوسل والتبرك كلمتان تدلان على معنى واحد وهو إلتماس الخير والبركة عن طريق المتوسل به. وكل من التوسل بجاهه صلى الله عليه وسلم عند الله والتوسل بآثاره أو فضلاته أو ثيابه، أفراد وجزئيات داخلة تحت نوع شامل هو مطلق التوسل الذى ثبت حكمه بالأحاديث الصحيحة، وكل الصور الجزئية له يدخل تحت عموم النص بواسطة ما يسمى ب ( تنقيح المناط ) عند علماء الأصول.**

**ولنكتف من تعليقنا على قصة هجرته صلى الله عليه وسلم عند هذا القدر، لنتحدث بعد ذلك عن الأعمال الجليلة التى بدأ يقوم بها صلى الله عليه وسلم فى المجتمع الجديد فى المدينة المنورة.**